المحاضرة الأولى

تمهيد:

لقد عرفت الإنتاجات الأدبية الأمازيغية التقليدية تداولا واسعا في الأوساط الاجتماعية،وحظيت بمكانة بارزة في حقل الإبداعات الشفوية منذ القدم،على الرغم من أنّها دأبت على نهج الشفوية في نقل إرثها المعرفي عبر حلقات تعاقب الأجيال،فإنّ الذاكرة الجماعية لأبنائه لازالت تختزن-إلى حد اليوم-كمّا هائلا من النصوص الأدبية خاصّة الشعرية منها،هذه الأخيرة التي تعكس بجلاء ذلك الاهتمام البالغ الذي كان يوليه المجتمع الجزائري العريق للقول الشعري ،كإحدى الأسس المعرفية في بناء صرحه الحضاري،بامتداداته الإقليمية والزمنية.

إنّ الحديث عن الممارسات الثقافات في الخطابيْن اللغوي والأدبي الأمازيغيين يعني الحديث عن اللغة الأمازيغية في لغة تواصل يومي رغم قرون طويلة هيمنت عليها لغتان عربية وفرنسية،وإنّ محافظة الأمازيغية على نفسها من الاندثار دون أدب مكتوب أو تدوين معجمي أو نحوي لمن الأمور التي تستدعي منا التنقيب عن مكنوناتها ونكتشفها .

إنّه و بتفتّحنا على ثقافات الوطن المغاربي واطّلاعنا على أدبيات مختلف مناطقه،نجد أنّ ثقافة المجتمع الجزائري الأمازيغي القديم مثلا،تشاطر ثقافة ذات اتّساع جغرافي مذهل Culture supra-nationale،فأمثاله وحكمه نجدها في كتب روائيين أمازيغ من مناطق جغرافية بعيدة عنه وثروته اللغوية متداولة في قمم جبال لم تصلها وسائل الاتصال –قبلا-فلفظ حفظناه عن هذا الأدب ،يراودني شعور غريب لمّا أكتشف بأنّه شائع في جبال جرجرة وواحات تيميمون وبشار وجبال بني سنوس وهي مناطق جزائرية ،وكذا في مناطق بالمغرب الأقصى أو بتونس أو ليبيا أو كلّ جزء من أرض الأمازيغ(شمال إفريقيا)(ثامورث نتامازغا)فكلّ هذا يخلق في أنفسنا إكبارا وإجلالا لثقافة أدبنا الجزائري الأمازيغي التي لم نتخيّل يوما بأنّ وجدانهم كان يعي ثقافة تجاوزت حدود جغرافيتهم وأضحينا نراها كنزا ثمينا يمشي على قدميْن حريّ بنا كأكاديميين استغلاله والإفادة منه حفاظا على هوية ماهي إلّا أصل من أصول وَحدتنا الوطنية[1].

ومن اَمثلة الباحثَين الجزائريين الذين سمحوا لنا بمعرفة المشهد الأكاديمي للأمازيغية في مراحلها السابقة والراهنة لأجل حفظ الذاكرة والرقي بالأمازيغية نذكر بوليفا، بن سديرا،ومولود فرعون إذ لهؤلاء فضل السّبق في تأسيس النّهج الأوّلي للبحث الأمازيغي خلال الفترة الكولونيالية ،فنهجهم استمرّ بكيفية فاعلة في فترة الاستقلال على أيدي باحثين آخرين وعلى رأسهم مولود معمري –رحمه الله- الذي كان له الفضل الكبير في خوض تجربة تدريس الأمازيغية بمنهجية صائبة ،وبعده واصل الدّرب البحثي الشيخ محند ومحمد جلاوي ،هذا الأخير الذي كتب بحثا مثمرا حول الشعر الأمازيغي في منطقة القبائل في جزئيْن تضمّن الأنماط الشعرية القبائلية التقليدية كشعر
الامومة(الهدهدة"أزوزن"والمداعبة"أسرقص"وأشعار أوقات العمل"أشويق،وشعر الأفراح (حلقات الرقص (الأورار)وخضب الحناء وبيعها)وشعر
النقائض(أمعزبر)والشعر الديني والسياسي والاجتماعي والعاطفي...

كما وخصص جزأه الثاني لتطور الشعر القبائلي الحديث من حيث الموضوعات الحداثية كشعر الغربة وتحرر المرأة(تيللي نتمطوث)والمضمون الرومانسي للقصيدة الغزلية الحديثة والهوية الأمازيغية في شعر ما قبل وما بعد الاستقلال وكذا الانفتاح على التيارات الأدبية كالرومانسية والرمزية وتوظيف التراث في الشعر القبائلي الحديث وغيرها من الموضوعات الهامة التي تنمّ بذكاء ومهارة محمد جلاوي وصبره وأناته لإبراز المسار التحولي لجنس أدبي لم ينلْ النصيب اللازم من التاريخ والتأريخ فهذا الشعر القبائلي المعاصر كان بمثابة وعاء احتوى موضوع التمثلات الثقافية الأمازيغية .

يتحدث الباحث "أحمد بوكوس" عن أن الأمازيغية تمثل اللغة التي يتداولها – اليوم-قرابة ثلاثين مليون متكلّم عبر العالم ،على نحو لهجات تواصل شفهي بالأساس«فلم يتمكّن متحدّثو اللغة الأمازيغية من تحديد أو تثبيت لغتهم بوسيلة أدبية(كتابية) لذا كانت بأعداد كبيرة ولكنّها تتشابه بشكل كبير من حيث الإعرابُ والمفرداتُ ناهيك عن التنوّعات الكثيرة بين فروع لهجات الأمازيغية المختلفة ،ونتيجة لهذا التنوّع في اللغة ،يلاحَظ وجود عدد كبير من الكلمات المستعارة من الفينيقية والرومانية والعربية والتي وجدت طريقها إلى الأمازيغية»[2]

إن الأمازيغية متشبّثة بالأرض وما أسماء الأماكن والمدن والقرى والوديان والجبال إلّا دليل بليغ على ذلك.

***انتماء اللغة الأمازيغية:**

إنّ الأمازيغية كانت لهجة من لهجات كثيرة كوّنت اللغة الحامية الأم ،وبفعل عواملَ كثيرة جغرافية ،بشرية ولغوية أصبحت الأمازيغية لغة،انفصلت عنها لهجات،بنشوء هذه الأخيرة ضاعت اللغة الأمازيغية فانبرى الدّارسون إلى إعادة نظامها اللغوي بمستوياته المختلفة:، الصّوتية، التركيبية ،الصرفية والمعجمية.وقبل القرن التّاسع عشر كان الاهتمام بالأمازيغية محصورا في نطاق البحث عن علاقات اللغات الحامية السامية بعضها ببعض،وفي الثلاثينيّات من القرن التّاسع عشر وُضع أوّل معجم مزدوج أمازيغي-فرنسي ألّفه(Venture de Paradis)وقدّم له (Jacque champollion)في 1838 ،وقد أشار إلى أنّ بين الأمازيغية والمصرية القديمة قرابة[3] فازداد إثر ذلك الاهتمام بالبربرية وبالبحث في شأن انتمائها اللساني ،وفي سنة 1855م صدر كتاب بعنوان:"دراسة بيانية للغتين الفينيقية والبربرية"لصاحبه:A.C Judas ولم يستند الدّرس اللساني الأمازيغي إلى تحليل أدقّ وأعمق إلّا خلال القرن العشرين؛حيث اعتبرت الأمازيغية إحدى اللغات الحامية السامية كما أسماها –اعتباطيا-كارل ريتشارد ليبسيوس، وذلك حوالي 1860م[4].والتي يسمّيها اليوم اللسانيون باللغات الآفريقية الآسيوية.

بادرت ثلّة من النّخب النّاطقة بالأمازيغية إلى وضع استراتيجيات تطوير من خلال عمليات فردية ،وقد استهدفت الإشعاع الثقافي بقصد بعث وعي حداثي بالممارسات الثقافية الأمازيغية، عبر تحديث اللغة والموسيقى والأغنية وولوج أشكال التّعبير الأخرى كالصّحافة المكتوبة ووسائل الإعلام السّمعي البصري والسّنما والمسرح...

لا شكّ أنّ الحافز الأساس للعناية بالأمازيغية ثقافة ولغة يتمثّل بربط الأمازيغي(أيّا كانت جنسيته)بجذوره وتراثه ودفعه إلى الحفاظ عليها كونها تمثّل الأصالة والحكمة ،فالاهتمام والعناية بها يضيف لرصيد الأدب الجزائري الأمازيغي.

II-إحياء موروث الخطاب الثقافي الأمازيغي (إسهامات الادباء الجزائريين في نهضة الأدب الأمازيغي):

لا يمكن أن تنسى روحي منذ أن وعيّت هذا العالم ،إنسانا حفر في خلدي ذكرياتٍ ومشاعرَ جميلةً،عكستها طيبة قلب ونبل أحاسيس ،ونبع حنان لا ينضب،وعفوية وتلقائية منقطعة النظير، يحملها قلب الجدّة،فجدّتي وجدّة أيّ جزائري ،كانت ولا تزال رمزا من رموز الأصالة، صندوق أسرار تفشي لنا مباهج حياة وخلاصة تجارب وحكم ،فمثّلت بذلك مرجعا ثقافيا لا غنى للأديب عنه إن أراد أن يبحر في خطاب التّراث الشعبي الأمازيغي ،فيلج بذلك عالما مليئا بالأسرار والمفاجآت[5].

التمثّلات الثقافية في الخطاب الأدبي المغاربي: دراسة تطوّر الشعر القبائلي وخصائصه(بين التّقليد والتّجديد)لمحمّد جلاوي أنموذجا.

لقد كتب محمد جلاوي بحثا مثمرا حول الشعر الأمازيغي في منطقة القبائل في جزئيْن تضمّن **الجزء الأوّل** مايلي :[6]

الأنماط الشعرية القبائلية التقليدية :سنحاول التطرّق لبعضها فقط

***شعر الأمومة:Tamedyazt n tyemmat**

يبيّن فيه الكاتب كيف إنّ المجتمع الأمازيغي من المجتمعات التي تولي بالغ العناية لتربية الطّفل والتكفّل به منذ اللحظات الأولى من ميلاده إلى أن يغدو يافعا يتماثل للرجولة والاكتمال .وتظهر المادّة الشعرية التي تقوم عليها الأنماط التعبيرية الخاصة بهذا العالم الطفولي ،تُظهر بجلاء الارتباط الوثيق بين الأمّ وصبيّها ،هذا الارتباط المشحون بجملة من العواطف المعبّر عنها شعرا ،في العديد من اللحظات الحميمية التي يتمّ فيها التّعالق في رحاب التربية.ويميّز محمد جلاوي بين نمطين تعبيريين هما :

1-شعر الهدهدة"أزوزن"و2-شعر المداعبة"أسرقص"

***أشعار أوقات العمل"أشويق :Tamedyazt n lweqat n uxeddim**

***شعر الأفراح (حلقات الرقص (الأورار)وخضب الحناء وبيعها)**
Tamedyazt n lufruh

***شعر النقائض(آمعزبر)Tamedyazt n um3azber**

هو بمثابة مبارزة شعرية تحدث بين شاعرين أو أكثر يحاول فيها كل طرف إبراز ماله من قدرات وإمكانات في مجال القول والنظم بالقدر الذي يمكّنه من دحر الخصم وإذلاله وهو قائم أساسا على التّنابز بالألقاب(آمسلقب)،قد تكون هذه المبارزة اللفظية بين رجل وامرأة ،أو بين العجوز والعروسة،أو بين امرأتيْن أو بين بين مجموعتيْن .ومن أصناف النقائض في المجتمع الأمازيغي التقليدي:

1-نقائض الإيقاف:آمعزبر نوحبّس

2-نقائض حلقة الأورار(آمعزبر نورار)

***الشعر الديني Tamedyazt n ddin**

***الشعر السياسيTamedyazt n tsertit**

*** الشعر الاجتماعي Tamedyazt n tmetti**

***الشعر العاطفي Tamedyazt n tayri**

وقد تحدّث الكاتب في هذا اللون من الشعر عن المرجع الأوّل الذي رجع إليه في تحديد خصائص الشعر العاطفي ألا وهو كتاب لبوليفا تحدث فيه عن أشعار سي محند أومحند.

كما وتحدّث عن عنصر الإفصاح والتعبير عن المكبوتات العاطفية في الشعر القبائلي التقليدي وكأنّ هذا الاخير قنوات تعبيرية أساسة يفصح الشاعر من خلالها بطريقة مباشرة في وجه منظومة القهر الاجتماعي المعيش.

كما وخصص **جزأه الثاني** لتطور الشعر القبائلي الحديث من حيث الموضوعات الحداثية:[7]

كشعر الغربة وتحرر المرأة(تيللي نتمطوث)والمضمون الرومانسي للقصيدة الغزلية الحديثة والهوية الأمازيغية في شعر ما قبل وما بعد الاستقلال وكذا الانفتاح على التيارات الأدبية كالرومانسية والرمزية وتوظيف التراث في الشعر القبائلي الحديث وغيرها من الموضوعات الهامة التي تنمّ عن ذكاء ومهارة محمد جلاوي